إن الحديث عن البعد التاريخي النظري للنقد الأدبي في إطار الأفق العلمي ظل خلال تاريخه الطويل يبحث عن هويته الخاصة، ليستقل عن المعارف و العلوم التي احتضنته، كما أن تاريخه يكشف من جهة أخرى عن تاريخ سعيه نحو اكتساب طابع العلم، و إنتاج معرفة موضوعية و علمية بموضوعه، مما اضطره إلى انصياعه للعلوم المختلفة ليكتسب منها هذه العلمية، فأصبح بذلك كمن يقدم رجلا للارتباط بها و يؤخر الأخرى للاستقلال عنها.

كما أن تعدد المرجعيات النظرية و العلمية بقيت سجينة مفاهيمها الخاصة مما جعلها أحادية البعد تنشد العلمية من الزاوية التي اهتمت بها في الأدب مما حال دونها إلى إنتاج نظرية أدبية و نقدية متكاملتين، و على الرغم من الاحتفاء الكبير الذي حضي به علم اللغة في النقد الأدبي المعاصر بحكم اشتراكه مع النقد الأدبي في اللغة، لا يزال ينزع إلى إمكانية علمية النقد الأدبي، إلا أن المراهنة ستضل تتجدد بتجدد العلوم للارتباط مع النقد الأدبي في كنف الدعوة إلى علم الأدب، و التي بدأت تلوح في الأفق تباشير إمكانيته بالرغم من العوائق التي لا تزال تعترضه.

أما فيما يخص البعد المنهجي، فهو يتأسس على مختلف النظريات و التصورات السابقة التي تسعى إلى علمية النقد المنشودة، لأنه لا يمكن قطع خطوات في سبيل الوصول إلى ذلك دون الإيمان بأن المنهج هو العلم، أو على الأقل شرط أساسي في كل علم، كما أن المنهج ليس آلة جامدة يمكن استخدامها بمعزل عن الأسس الفكرية التي أنتجتها و المقاصد المرسومة لها، و إذا كان الحديث عن المنهج لازم الفائدة فإن الحديث عن الناقد ألزم، و ذلك لأن الناقد طرف جوهري في المنهج النقدي، و الذي لابد أن يتسلح بمؤهلات ثقافية و علمية و نظرية تؤهله لاستثمار المنهج استثمارا إيجابيا.

كما أن المنهج و ما يفرضه من تعارضات و اختلافات سواء على مستوى المناهج النصانية أم السياقية لدراسة العمل الأدبي يؤول إلى مرجعيات علمية مختلفة، و ما واكب ذلك من الدعوة إلى المنهج المتكامل في ظل الممارسة النقدية، فضلا عن تعدد المصطلحات الدالة على العمل النقدي، و ما يكشف مفاهيمها و اختلافاتها قد يعيق علمية النقد الأدبي، و هذا لا يعني التغافل عن الإيجابيات التي تم تحقيقها على صعيده، و التي تكشف عن مظاهر مشرقة في الفكر النقدي المعاصر، مثلما تحقق ذلك على الصعيدين النظري و التاريخي، و كلها تؤشر على أن النقد المعاصر قد بذل جهدا مضنيا لتحقيق مسعاه نحو العلمية.

أما فيما يخص البعد المنهجي التحليلي لدى النقاد العرب من خلال النماذج المختارة و هم الرواد الأربعة الكبار، و اللذين أفادوا كثيرا من المناهج الغربية المعاصرة و لاسيما البنيوية، حيث إنهم تشربوا بعمق هذه المناهج و انعكس ذلك من خلال تنظيراتهم و تطبيقاتهم، فكانوا همزة الوصل التي تصل بين النقد الغربي و النقد العربي على الرغم من بعض المآخذ، و هذا ما أجده عند "كمال أبو ديب" و دراستيه السابقتين سواء (الشعر الجاهلي) أو (جدلية الخفاء و التجلي)، حيث راح كغيره من النقاد العرب يتراوح بين الالتزام بمبادئ هذا المنهج و بين الترقيع فيه بجذاذات من مقولات من مناهج أخرى !.

كما أن "صلاح فضل" هو الآخر قد حاول من خلال كتابه (نظرية البنائية في النقد الأدبي) أن يستوفي الشروط النقدية لهذا المنهج و مستويات تحليله، بالإضافة إلى كتابه الثاني (مناهج النقد المعاصر) الذي حاول فيه الإلمام بهذه المناهج و انعكاساتها على بعض الدراسات العربية، فكانت دراسته محاولة رائدة محفوفة ببعض الهفوات إن على مستوى التنظير أو التطبيق.

أما "عبد الله الغذامي" فإن كتابه (الخطيئة و التكفير) فقد تبنى فيه الباحث أحدث منهجين آنذاك و هما: البنيوية و التشريحية (التفكيكية)، و قد بدا أكثر تشربا من غيره لأنه جمع بين القديم و المعاصر، و ذلك من خلال تصورات و نظريات المناهج الغربية و استيعابه للمفاهيم التراثية العربية، إلا أن الباحث قد أفاد النقاد ذوي النزعة الانطباعية الشكلية أكثر من النقاد ذوي النزعة العلمية التفسيرية.

أما "محمد مفتاح" من خلال كتابه (تحليل الخطاب الشعري) فقد حاول التوفيق بين أكثر من منهج واحد على الرغم مما تعرض له من مشاق و بعض المزالق التي تقود إلى التلفيق أحيانا حسب رأي "محمد عزام" و هذا ما يؤكده خروجه عن بعض مقولات هذه المناهج ليعود إلى التراث البلاغي.

و في الأخير، أتمنى أن يكون هذا الموضوع محطة اهتمام من قبل المتخصصين للترشيد و التوجيه، و أملي من القراء و الدارسين أن يثروا و ينيروا جوانب هذا الموضوع إما بالإضافة أو التعديل أو التصويب، كما أتمنى أن يكون هذا الموضوع نافذة بسيطة مطلة على النقد الأدبي العربي لتتبع بعض تجلياته العلمية ظاهرة و نصوصا.